المركز الجامعي بالوادي
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
قســـم التاريخ

تـاريخ المعتقدات والأديـان

الديانة الهندوسية

تـــاريخ المعتقـــدات والأديـــان

موجز عن الديانة الهندوسية

النشأة:

الهندوسية : من أقدم الديانات المعاصرة ، وبأتباع يربون على المليار نسمة ، منهم 890 مليون نسمة يعيشون في الهند. وتعود نشأتها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. والهندوسي هو من يؤمن بالفلسفات الواردة في كتابهم المقدس .

والدارس لتاريخ الهند يجد صعوبة بالغة في تحديد حالات الاستقرار في الهند، ولكن الراجح أنّها بدأت تشهد منذ الألف السادس قبل الميلاد حالات من هذا القبيل. فقد عرفت هجرات عديدة، وموجات من الشعوب، وإن كان الآريون الآتون من ضفاف بحر قزوين هم المجموعة الأبرز، والتي تبلورت معها أمور كثيرة في الهند ومنها الديانة الهندوسية.

وبعد جولات ونزاعات شهدت حالات من الكر والفر مع باقي موجات الشعوب، دخل الآريون ـــ كما يقول السحمراني ـــ في نسيج البلاد إلى حدّ أنّ بعض المؤرخين قال: كلمة (آري) مأخوذة من اللغة السنسكريتية وهي لغة الهند ومعناها: الشريف والنبيل .

ولم يلبث أن امتزج الآريون بالدرافيديين، الأمر الذي أثر في صنع نموذج الهند الديني، ومعتقده ومعبوده، واللفظ عندهم متقارب مع الكلمات الأوروبية بفعل وحدة المنشأ اللغوي والثقافي والسكاني، الإله عند الهنود هو (دافا Dava) وفي اللاتينية (Deus) وفي الفرنسية (Dieu) وهكذا.

أمّا الأدبيات الدينية الهندية فقد تـــمّ تدوينها على مراحل، ولـــم تظهر أيّة مدونات قبل القرن الثامن قبل الميلاد وهي ما سمي بكتب (الفيدا) ومعناها "كتب الحكمة."

ومما يلفت الانتباه إليه هو أنه لـــم تنسب أدبيات الهندوس لشخص بعينه بل هي، ، بل هي ثمرة تراث لشعوب تمازجت وانصهرت في بوتقة مجتمع واحد.

كانت الهندوسية تسمى قديماً درما ، وهو الإسم الأصلي، وتسمى كذلك سانتانا ، واتخذت حديثاً اسم الهندوسية، وباتت تشمل الحضارة والدين والعادات والتقاليد.

عقيدة الديانة الهندوسية :

يقود البحث في عقيدة الهندوس في الألوهية إلى مزيد من التعقيد والإرباك، بحيث تطالعك المصادر والمراجع في الحديث عن آلاف الآلهة التي يقدسونها، واختصاص كلّ واحد منهم بمهمة.

ويبدو أن برهم أو برماتا الإله رب الأرباب يعتبر الإله الأساسي في عقيدة الهندوس ، وقد تحدث البستاني في دائرة المعارف عن أصله فقال: إنه من أصل فارسي مركب من كلمتين هما براي أي الارتفاع وماه أي عظيم أو ميه ، ويقال أن برهم حقيقة سنسكريتية وهي تحريف برماه وهي كلمة لا تأنيث فيها ولا تذكير فيكون المراد بها أن المعبود خنثى أي يمكن أن يجمع بين التذكير والتأنيث أو يكون فاقداً لكليهما.

أما عن طبيعة الآلهة عند الهندوس ؛ يذكر ول ديورانت في قصة الحضارة : أنها «تزدحم بها مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد ، وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين ، وطائفة منهم أجرام سماوية مثل الشمس ، وطائفة منهم تمائم ... وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السَّماء ، فالهندي لا يرى فارقاً بعيداً بين الحيوان والإنسان ،فللحيوان روح كما للإنسان... وكلّ هذه الصنوف الإلهية قد نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لحدودها، هي الكارما[1] وتناسخ الأرواح ؛ فالفيل مثلاً قد أصبح الإله جانيشا واعتبروه ابن شيفا ، وفيه تتجسّد طبيعة الإنسان الحيوانية... كذلك كانت القردة والأفاعي مصدر رعب، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة؛ فالأفعى التي تؤدي عضة واحدة منها إلى موت سريع، واسمها ناجا، كان لها عندهم قدسية خاصة؛ وترى النّاس في كثير من أجزاء الهند يقيمون كلّ عام حفلاً دينياً تكريماً للأفاعي، ويقدّمون العطايا من اللبن والموز لأفاعي الناجا عند مداخل جحورها؛ كذلك أقيمت المعابد تمجيداً للأفاعي كما هي الحال في شرق ميسور.»

---

1 كارما : هو مصطلح شائع في الديانات الهندية (الهندوسية والجينية السيخية والبوذية) ويطلق لفظ كارما على الأفعال التي يقوم بها الكائن الحي، والعواقب الأخلاقية الناتجة عنها. إن أي عملٍ، لا بد أن تترتب عنه عواقب، ما دام قد نَتَج عن وعي وإدراك مسبوق. وتأخذ هذه العواقب شكل ثمارٍ تنمو، وبمجرد أن تنضج تسقط على صاحبها، فيكون جزائُه إما الثواب أو العِقاب. قد تطول أو تقصر المدة التي تتطلبها عملية نضوج الثمار (أو عواقب الأعمال)، غير أنها تتجاوز في الأغلب فترة حياة الإنسان، فيتحتم على صاحبها الانبعاث مرة أخرى لينال الجزاء الذي يستحقه. فالكارما هي قانون الثواب والعقاب المزروع في باطن الإنسان. لا يمكن لكائن من كان أن ينال جزاء لا يستحقه، نظرا لأن الكارما تقوم على عدالة شاملة. يعمل نظام 'كارما' وفق قانون أخلاقي طبيعي قائم بذاته وليس (كما في الأديان الأخرى) تحت سلطة الأحكام الإلهية. تتحدد وفقا للكارما عوامل مثل المظهر الخارجي، الجمال، الذكاء، العمر، الثراء والمركز الاجتماعي. حسب هذه الفلسفة يمكن أن لأكثر من كارماٍ مختلفة ومتفاوتة، أن تؤدي في النهاية إلى أن يتقمص الكائن الحي شكل إنسان، حيوان، شبح أو حتى إحدى شخصيات الآلهةفي ديانة الهندوس.

أما البستاني فيقول "إن برهم هو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع في أعماله، وهو الأقنوم الأول من الثالوث الهندي أي أن برهم ينبثق من نفسه في ثلاثة أقانيم كل مرة في أقنوم، فالأقنوم الأول الذي يظهر به أول مرة هو برهما ، والثاني وشنو، والثالث سيوا". ويذهب إلى قريب من هذا د. إحسان حقّي حيث يقول في مقدمة كتابهم المقدس (منّوسَمَرتي) في نسخته المترجمة: «يعتقد الهنادكة بالوحدة وله ثلاثة أعوان يديرون ملكه وهم: برهما ، وشنو (فشنو) ، فهِيش (شيفا) » .

ولعلّ الأقرب إلى الواقع ما ورد هو أنّهم يقولون بالثالوث من الآلهة الذين تُسند لكلّ منهم مهمة بعينها والثالوث يكون من: براهما ـــ فيشنو ـــ شيفا.

1 ــ براهما :يُطلق عليه اسم (سانج هيانج) ، وهو الإله الخالق ، حسب معتقدهم ، لذلك نسجوا حوله أسطورة تدور حول عملية الخلق ، وقد جاء في كتاب عالم الأديان لحميد فوزي ما نصه :

« ويعتقد أنهّ خالق الكون على طريقته ، فقد أخذ براهما يتأمّل ويفكّر طويلاً فنشأ عن تفكيره هذا فكرة مخصّبة ، تطوّرت إلى بذرة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما ، خالق كلّ شيء فهو الخالق والمخلوق» ورغم هذا الموقع الذي يحتله براهما في عقيدة الهندوس إلاّ أنّه مهمل في شعائرهم وطقوسهم .

ولبراهما أربعة أوجه وكانوا سابقاً خمسة رؤوس ، لكن الإله شيفا أحرق إحدى الرؤوس بعينه الثالثة. لأنه تكلم معه باحتقار، وله أربعة أيدي يحمل بالأولى الكتاب المقدس القيدا وبالثانية ملعقة وبالثالثة مسبحة وبالرابعة إناء فيه ماء .

ورغم هذا الموقع الذي يحتله براهما في عقيدة الهندوس إلا أنه مهمل في شعائرهم طقوسهم فرغم اعتباره من ثُلاثي الآلهة العِظام " تريمورتي"[1] وهم" فيشنو "و"شيفا"، وقد خسر براهما قوته لكونه خالق هذين الإلهين الذين أصبح أحدهما للبناء والآخر للتدمير والتهديم.

صورة الإله برهما ذات الرؤوس الأربعة

1 تريمورتي :كلمة سنسكريتية تعني الأشكال الثلاثة وهي عقيدة هندوسية تقول إن الوظائف الكونية الثلاث من خلق وحفظ وتدمير مجسدة في براهما وفيشنو وشيفا على الترتيب .وتدعى هذه الآلهة الثلاثة "الثالوث الهندوسي أو الثالوث الأعظم .

2 ــ فيشنو : ويسمونه الحافظ وطريقته الحفـــاظ على العالـــم . فيشنو كما يصفه كولر ، في كتابه الفكر الشرقي القديم ، فهو إله ممتلئ بالحبّ الذي يغذي الحياة ، ويبقي عليها ، وكثيراً ما يصوّرونه على هيئة إنسان يجسّد الخير والعون للبشر، ويساعده في مهمته آلهة آخرون ، وفق معتقدهم ومنهم: راما ــ وكرشنا ، ويحتل فيشنو موقعاً متميزاً في الشعائر الهندوسية .

الإلـــه فشنو

3 ــ شيفا : يُنسب إليه الفناء والدمار ، وهو المهلك للعالـــم ومهمته نقيض مهمة فيشنو، وشيفا في عقيدة الهندوس وكما ورد في قصة الحضارة لديورانت هو «إله القسوة والتدمير قبل كلّ شيء آخر؛ هو تجسيد لتلك القوّة الكونية التي تعمل، واحدة بعد أخرى ، على تخريب جميع الصور التي تتبدى فيها حقيقة الكون ، جميع الخلايا الحيّة وجميع الكائنات العضوية ، وكلّ الأنواع ، وكلّ الأفكار وكلّ ما أبدعته يد الإنسان ، وكلّ الكواكب ، وكلّ شيء » .

والهندوس الذي يعتبرون شيفا عندهم إله الفناء والدمار، حاولوا أن يفسّروا ما يصدر عنه بأنّه بحدّ ذاته رحمة، وفي الحديث عن شيفا قالوا كما جاء في كتاب الفكر الشرقي القديم لكولر: «إنّه يقدّم النعمة الإلهية التي بمقتضاها يمكن إزالة ضروب الافتقار التي تلوث والتي تتجلّى في صورة نواقص وعيوب في النفس المقيدة. ويحمل شيفا في راحة يده اليسرى العليا لساناً من لهب يمثّل القوى المدمّرة التي ارتبطت طويلاً بهذا الإله»

وهكذا ترتكز الديانة الهندوسية على ثالوث إلهي قوامه : خالق هو براهما ، وحافظ هو فيشنو، ومدمّر مهلك هو شيفا. ولهذا الثالوث تجليات في آلهة أخرى مثل كرشنا وراما وبودا وكاليكي.

الإلــه شيفا

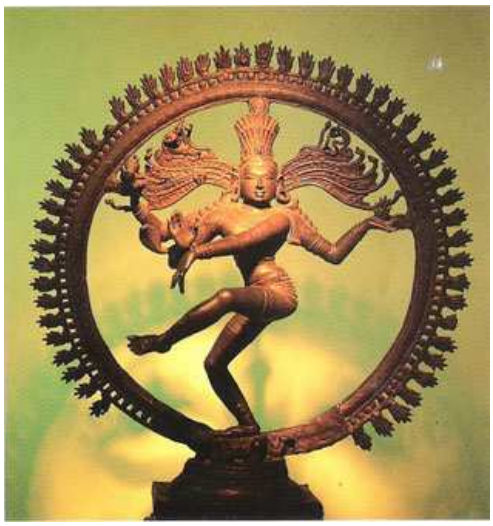

وإذا أردنا أن نعرف بعض وظائف هذه الآلهة عندهم ، نراهم قد اعتبروا كرشنا آتياً من أجل إحلال السّلام، وبودا ، أو يووهي، من أجل نشر المعرفة والتعليم الذي يقود إلى الطمأنينة. أمّا كاليكي ، فهو الإله المنتظر عند الهندوس والذي لــم ينــزل بعد ، ولــم يحن وقت تجليه. نكتفي بذكر بعض أسماء وتعاريف الآله المشهورة والمهمة لدى الهندوس :

4 ــ كريشنا : أحد آلهة الحضارة الهندية الكبار ، يرسم عادة على شكل ولد راعي بقر يعزف الناي أوكأمير يقدم توجيهات فلسفية. وهو تجسد فيشنو ، هناك قصص كثيرة مختلفة حول كريشنا في الهندوسية لكنها تتفق على التجسد الإلهي ، وطفولة إرشادية ، وحياة كمعلم ، وبطل محارب.

الإله كرشنا

5 ــ سَرَسْوَتِي : هي إحدى الإلهات الهندوسية . وهي إلهة الكلام والعلم والتعليم . تذكر الأسطورة أنها خلقت اللغة السنسكريتية وآلة موسيقية تشبه العود وأنها زوجة براهما إله الخلق في الهندوسية. وهي إحدى ثلاث إلهات في الهندوسية مع لاكشمي ودورجا اللاتي يشكلن المقابل الأنثويا لتريمورتي وتعتبر ساراسواتي إلهة الأنهار ومؤخرا اعتبرت إلهة العلم والموسيقى والفنون. تظهر صورتها عادة بأربعة أذرع تمسك الآلة الموسيقية بذراعين وتمسك أيضا زهرة لوتس وفي اليد الرابعة كتاب.

الإله سَرَسْوَتِي

6 ــ لَكْشْمِي : هي إلهة المال والحظ في الهندوسية وهي زوجة الإله فيشنو ، تصور لكشمي بأربعة أذرع وهي بيضاء اللون وتقف على زهرة لوتس ومغطاة بالجواهر.

7ــ دورجا أو دُرْغا : ومعناها لا تقهر أو لا يمكن الوصول إليها ، وتسمى أيضا ما دورگا أي الأم دُرْغا هي الإلهة العليا في الهندوسية ، وهي أيضا الوجه القوي المحارب للشياطين . لذلك ترسم بعشرة أذرع وتركب الأسد أو النمر وتحمل أسلحة ، وتعتبر تجسد الطاقة الأنثوية الخلاقة.

مصير الإنسان بعد الموت :

أمّا بالنسبة لمصير الإنسان بعد الموت ، فإنّ الهندوسية ـــ كما يقول السحمراني في كتاب من قاموس الأديان، بحث الهندوسية ـــ لا تؤمن بحياة أخرى فيها جنّة ونار وثواب وعقاب ، وإنّما يرتبط مصير النفس بموضوع التناسخ ، حيث تنتقل الأنفس من بدن إلى آخر ، وأعمال الإنسان هي التي تحدِّد مصير النفس ، فإذا سلك سبيل الخير واتّبع الفضائل انعتقت نفسه من دورة الحياة في الأبدان واتحدّت بالروح الكلية ، وإلاّ تبقى في هذه الدورة متنقلة من بدن إلى آخر.

لذلك يركز الهندوس اهتمامهم على النفس ، لأنّ النفس في معتقدهم يمكن أن ترقى إلى الكمال ، أمّا البدن فسمته النقص ، ولكي يحقّق الجسد درجة ما من التطهير ينبغي عليه أن يستغل وجود الروح فيه ، ولهذا قالوا بحرق البدن عند الموت ، والموت عندهم نهاية لا تجدّد لها.

فكلّ الحواس لا يمكن أن تؤدي وظائفها ، إذا لـــم تكن آتما ، وهي النفس ، صاحبة القيادة والإرادة وذلك لأنّ النفس آتما هذه أصلها من براهما ، الذي يعتبرها كقرص الشمس وهي شعاعه ، تلك الأشعة التي تدخل في كلّ مكان على امتداد العمران والكرة الأرضية.

والنفس عند الهندوس بالرغم من أنّها كاملة ، ولكنّها لا تخلد كجوهر مستقل ، وإنّما خلاصها يتمّ عن طريق ممارسة رياضة «اليوغا»[1] ، وهذه الرياضة منها قسوة على البدن وتعويد للنفس على الصبر والثبات واليوجا كلمة سنسكريتية معناها «النير» وسميت كذلك لأنّها تخلّص النفس من نير البدن[2] ومن نير الشهوات.

واليوغا هي طريق لتسهيل الاتحاد بالنفس الكلية ، عن طريق رياضة روحية وجسدية ، أو عن طريق القرابين ، وتذهب اليوجا إلى أنّه لا تكفي حياة واحدة لإدراك هذا الاتحاد لأنّه بحسب مبدأ الكارما قد تتطلب أفعال العبد السيئة ولادات متتالية في صور إنسانية أو حيوانية.

ما تقدّم يدفعنا إلى القول إلى أنّ الهندوس لا يتوافقون مع الرسالات السّماوية عموماً في مسألة الخالق وفي النظر إلى اليوم الآخر.

---

1 انتشرت هاته الرياضة في العالم وحتى في العالم العربي ، لكن المؤكد أن لها أصول متجذرة في العقيدة الهندوسية ، مما يدعونا شرعا وأخلاقا من التثبت في كل وارد علينا ، ودراسته شكلا مضمونا .

2 نير البدن : قيد وسيطرة البدن.

ومن مظاهر التقديس كذلك عند الهندوس ، نهر الغانج الذي يحجون إليه سنوياً بقصد التطهر بمائه وكذلك يلقون فيه رماد موتاهم بعد أن يتمّ إحراق أجسادهم ، فالدفن للأبدان ليس معتمداً عندهم .

ويقدس الهندوس البقر ولا يأكلون لحومه ، والأبقار تنتقل عندهم في شوارع المدن حيث تشاء ، وبحرية تامة ، لا يزعجها أحد ، وقد حصل الكثير من حوادث القطارات والسير في الهند ، نتيجة توقف سريع إكراماً لبقرة ، والأبقار تنتقل عندهم في شوارع المدن حيث تشاء ، ويأكلون اللبن فقط ، ويستخدمون الروث وقوداً أمّا البول فهو عندهم للعلاج أحياناً كالدواء ، ويضعه الكهنة في أوعية ويرشونه على الجمهور بعد انتهاء طقوسهم في المعابد ، أما إذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية .

الكتب الهندوسية:

لـــم تنسب النصوص المقدسة عند الهنود كما ذكرنا إلى شخص بعينه ، والفيدا أو الويدا ، التي تعني ـــ في لغة الهنود السنسكريتية ـــ المعرفة ، هي عبارة عن مدونة كبرى أو موسوعة تحوي الكثير عن بلاد الهند وشعبها على امتداد قرون عديدة تبدأ مع حوالي2500 ق.م. كما يتطرق الفيدا إلى تاريخ الآريين القديم في مقرهم الجديد " الهند "، ففيه أخبار حلهم وترحالهم ودينهم ومعاشهم ومطاعمهم وملبسهم .

والفيدا هذه مرّت بمراحل ، فقبل أن تدون كان معناها التأمّل ، ولكن بعد أن دوّنت وسجلت تاريخ الهند وتراثه ومفاهيم الهندوس الدينية ، أصبحت هي التي تنظم حياة أتباعها وصولاً إلى المعرفة المنشودة.

ويرجح ديورانت أن أول من قام بمهمة التدوين للمرة الأولى بعض التجار الهنود من طائفة الدرافيديين ، ما جعل هذه الكتابة كما يظهر لا تستخدم إلاّ لأغراض تجارية وإدارية، وهذا يعني أن التجار لا الكهنة هم الذين ارتقوا بهذا الفن الأساسي.

وبناء على ذلك يصل السحمراني إلى نتيجة مفادها أنّ تدوين الفيدا تطوّر مع تطوّر اللغة السنسكريتية نفسها ، ولعلّ هذا التأخر في التدوين ، هو الذي حرّم الباحثين من مصادر المعرفة عن تاريخ الهند القديـــم .

ويبدو أنّ الكهنة الهندوس ـــ البراهمة ـــ قد شجعوا فيما بعد هذا التدوين لتكون الفيدات في أيديهم سلاحاً دينياً يضمن لهم السيطرة والموقع المتقدّم ، خاصة بعد أن وطدوا أسس النظام الطبقي في الهند وأعطوه بعداً دينياً.

الفيدات لم تكن كتاباً واحداً، وإنّما هي مجموعة كتب تصل إلى أربعة عشر كتاباً ، وأهم هذه الكتب كتاب اسمه: «منُّوسَمَرتي» أو «شرع منُّو» وقد نقله إلى العربية إحسان حقّي ، وفي تقديمه للكتاب يبيّن ما في نصوص الكتاب من تشويش وعدم انسجام فيقول: «وإذا شئنا أن نصف منُّوسَمَرتي قلنا إنّها مجموعة متناقضات ، إذ بينما نراه يرتفع بتشريعه إلى أعلى درجات العقل ، والإدراك وسلامة الذوق والتفكير نراه ينحدر فجأة إلى درجةٍ من السخافة والإسفاف المخجل... ، ولئن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلُّ على أنّ هذا الكتاب كُتب في أوقات متباعدة ، وبأيدي أناس مختلفين اختلافاً كبيراً في العلم والعقل والإدراك ».

وتعتمد فلسفة الفيدا على أن طبيعة وتكوين المخلوقات إلهية الطّابع ، وأن براهما يوجد داخل كل كائن حي. ومفهوم الدين بالنسبة للهندوس هو عملية البحث عن الذات ، أي عملية البحث عن الكيان الإلهي داخل الإنسان. كما لا تنادي الهندوسية بالبحث عن الخلاص أو إنقاذ الروح ، فالروح سليمة وليست بحاجة لخلاص أو إنقاذ ، فكل ما يحتاجه الإنسان هو التّخلص من الجهل المحيط بمعرفة الذات.

وهناك من يقسم كتب الفيدا إلى :

1- الريج فيدا : ويشتمل على 1017 أنشودة دينية وضعت ليتضرع بها الهندوسي أمام الآلهة ، ويقال إنه يرجع في تأليفه إلى 3000 ق م .

2- ياجور فيدا : وتشتمل على العبادات القولية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين .

3- ساما فيدا : وتشتمل على الأغاني التي ينشدها المنشدون آثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية .

4- آثار فيدا : وتشتمل على مقالات في السحر والرقى والتوهمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة .

نظام الطبقات عند الهندوس:

تدين غالبية الشعب الهندي بالهندوسية ، التي تطوّرت مع تطوّر الهند نفسها ، وكما سبق القول ، فإنّ الهندوسية ليست ديانة فحسب وإنّما حوت من خلال مفاهيمها وكتبها ، تاريخ الهند الحضاري .

وقد اختلط النظام الديني، كما يقول السحمراني ، بمختلف الأنظمة من سياسي واجتماعي واقتصادي ولكي يضمن أصحاب النفوذ الديني وأصحاب النفوذ السياسي نفوذهم كرّسوا نظام طبقي اجتماعي يضمن لهم السيطرة ، فكان من ذلك أن تبلور نظام الطبقات عند الهندوس ، الذي وزّع الهنود في أربع طبقات مغلقة ينتمي الأبناء بذلك إلى طبقات آبائهم حكماً.

الطبقات الأربع : يتكون المجتمع حسب الهندوسية من أربع طبقات هي: **البراهمة ، الكشاتريا ، الويشاش الشودر.**

ومزاعم الهندوسية تصل إلى حدِّ التمييز في مصدر ما يتكوّن منه أهل كلّ طبقة ، وفي شرع منُّو، المعروف باسم «منُّوسَمَرتي»، يقولون: «لسعادة العالـــم خلق برهما البراهمة من وجهه ، والكشتريين من ذراعيه والويش من فخذيه ، والشودر من قدميه » .

ووصف البيروني حال هذه الطبقات بشكل لا يبعد عن المفهوم الوارد في "منوسمرتي"حيث يقول: «وهذه الطبقات في أوّل الأمر أربع ، عليا‌ها البراهمة ، قد ذُكر في كتبهم أنّ خلقتهم كان من رأس براهم... والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس ، والطبقة التي تتلوهم كشتر خُلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ، ودونهم بَيْش ، خُلقوا من رجلي براهم. وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان، وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى ، أربعتهم مختلطي المساكن والدور » .

أ ــ البراهمة : جاء في نصوصهم المقدّسة (منُّوسَمَرتي) أنّ الإله الأكبر برهما قد « عهد إلى البراهمة بقراءة الويد وتعليمه والقيام بأعمال ... لأنفسهم ولغيرهم وخصهم بإعطاء الصدقات وقبولها » .

وأبناء هذه الطبقة هم كما يقول كولر: «من الكهنة والمعلمين الذي يعدُّون بصفة عامة حملة الثقافة ومهماتهم هي الحفاظ على المعرفة والثقافة وإرضاء الآلهة ، والحفاظ على العدالة والأخلاق » .

ب ــ كشاتريا : الطبقة الثانية رتبة بعد البراهمة. تتولّى هذه الفئة مسألة الحفاظ على الأمن في البلاد ، لذلك من الواجب أن يتميّز أبناؤها بالكفاءة السياسية والعسكرية معاً ، بحيث يكون لهم في المجتمع الإقدام والمهابة ويقول جون كولر في تعريف الكشاتريا ما يلي: «وتتألف طبقة الكشاتريا من حماة المجتمع والقائمين على إدارة شؤونه ، وهم حرّاس باقي المجتمع ، والقائمون على أمنه ، وعلى تنفيذ القواعد المختلفة التي تقتضيها الوظائف الاجتماعية الضرورية ، وجاء في الفيدا أنّ البطولة والقوّة والاستقامة والحذق، وعدم الهرب حتّى في المعركة والكرم والقيادة ، تلك هي واجبات رجال الكشاتريا التي تولّدت من طبيعته » .

وما يُناط بهذه الطبقة يستلزم ، كما قال البيروني ، أن يكون " الكشتر" : « مهيباً في القلوب ، شجاعاً متعظماً ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبالٍ بالشدائد ، حريصاً على تيسير الخطوب » .

ج ــ الفايشاش أو الويش : مهمة هذه الطبقة أساسية في المجتمع يقع عليها توفير الأمن الغذائي ، وتأمين الرخاء والاستقرار المعيشي ، والشأن الاقتصادي بيد هذه الطبقة ، وعملهم هذا لا يقومون به اختياراً بل تنص عليه "منُّوسَمَرتي" ، أو "شرع منُّو" التي تقول: « وفرض على الويش سبعة أمور هي : حفظ الحيوانات ورعيها وإعطاء الصدقات ... ، وقراءة الويد ، والعمل بالتجارة ، والتعامل بالربا ، والاشتغال بالزراعة » .

وتحاول هذه الطبقة رفع مستواها رويداً رويداً ، وتعمل على تحرير نفسها من قيود الحياة ومشاغل الأيام ولكنّها تظلّ خادمة للأمّة وللشعب ، فهي المسؤولة عن الإنتاج والرخاء » .

د ــ شودار أو سودرا : وهذه أدنى طبقات المجتمع في هرم التوزيع الهندوسي ، وهؤلاء أشبه ما يكونون بالعبيد ، فواجبهم الخدمة والعمل وإنجاز كلّ ما يوكل لهم من الطبقات الأعلى. يقول البيروني: «ويكون شُودر مجتهداً في الخدمة والتملُّق ، متحبباً إلى كلّ أحدٍ بها ، وكلّ من هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير » .

أمّا إذا لـــم يقم بواجبه ناله العقاب ، وقد نص شرع الهندوس (منُّوسَمَرتي) بشأن وظيفة هذه الطبقة بما يلي: « وفرض الإله الأعظم على الشودار أمراً واحداً وهو أن يقوم بإخلاص تام بخدمة هذه الفرق الثلاث » ويقصد بها الطبقات السابقة الذكر وهم : البراهمة ، الكشاتريا ، والفايشاش .

أوجد هذا التقسيم الطبقي انقساماً حاداً في المجتمع الهندي الذي يربطه الهندوس بأصل النشأة ، وهذا يعني إقفال الطريق أمام الكفاءات والقدرات ، وبالتالي فقدان العدالة ، ما أدى إلى قيام العديد من المحاولات للتخلص من هذا النظام الطبقي الجائر ، وكانت أبرز هذه المحاولات محاولة المهاتما غاندي ، في أوائل القرن

العشرين ، ولكن المحاولة لم تحقق النتائج المرجوة ، لأن التميز الطبقي متأصل في العقيدة ، وفي المجتمع عند الهندوس .

شعائر وعبادات الهندوس :

1ــ الطهارة : يُلاحظ أنّ المواقع المقدّسة التي يحج إليها الهندوس تتوزّع على ضفاف الأنهار، وخاصة نهر الغانج الذي يُعتبر أكثر الأنهار قداسة ، ويلقى فيه رماد موتاهم بعد حرق جثثهم ، ويكتسي هذه الأهمية من كونه ينبع حسب زعمهم من تحت قدمي الإله الحافظ «فيشنو».

فالجنابة كما جاء في نصوص كتابهم منُّوسَمَرتي يتمّ التطهر منها بالاغتسال « إذا ما خرج المني من الإنسان فإنّه يتطهر بالغسل »، كما أنّ «المرء يطهر بالغسل إذا ما لامس شخصاً من الأسافل ، أو امرأة حائضاً أونفساء أو جثمان ميّت أو لمس من قد لمس جثمان ميّت » .

وعندهم أيضاً أنّ دم الشهيد طهرٌ له ؛ وبالتالي لا يغسّل، ويقولون في شرعهم : «وكلّ من يموت في معركة أو قتال أو يهلك بصاعقة أو دون بقرة أو برهمي ، أو يقتل بأمر الملك ، أو يريد الملك أن يكون طاهراً لا يتنجس أحد بموته » ، أما للمرأة فإنّها « تطهر بعد الإجهاض بيوم عن كلّ شهر من أشهر الحمل ، وتطهر بعد الحيض بالغسل ».

والطهارة عند الهندوس على نوعين ؛ حسيّ وهو الاغتسال بالماء ، ومعنوي كطهارة الروح بالعلوم المقدسة والقلب بالعبادات .

2 ــ الصلاة : يُعتبر الاستحمام ، وارتداء الثياب النظيفة ذات اللون الأصفر أو الأبيض ، هذا مع غسل الأيدي والأفواه بالماء المعطّر ، ويؤدي كلّ من الرّجل والمرأة الصلاة بهيئة مختلفة عن الآخر ، فالرّجل يجلس متربعاً والمرأة تجثو على ركبتيها ، أمّا أداء الصلاة فيكون أداؤها كما يلي: «ليس في الهندوسية صلاة جامعة، ولا صلاة جماعة ، فالصلاة كلّها فردية » كما ذكر شلبي ، في كتابه أديان الهند الكبرى.

أمّا من ناحية الوقت ، فقد جاء في منوسمرتي ، أنهم يقيمونها في اليوم مرتين : صباحاً ومساءً ، فصلاة الصبح عليه أن يؤديها وهو واقف على قدميه من انبلاج الفجر حتّى مطلع الشمس ، ويقرأها في صلاة المساء وهو جالس ، إلى ظهور النجوم ، فصلاة الصبح بهذه الطريقة تُذهب كلّ ذنوب الليل ، وصلاة المساء تُذهب كلّ ذنوب النهار.

وقد تشدّد الهندوس في أمر الصلاة، وقد نصت منوسمرتي على طرد من لـــم يؤدّها ويصبح من المنبوذين (الشودار) أو يُحرم من حقوق المولودين ثانية، أي من انتقلت إليهم روح كانت لها حياة سابقة.

ولشدّة ولع الهنود بالتنسك والاعتزال في الغابات وعلى ضفاف الأنهار، رأوا أنّه « لا بأس بأن يقوم المرء بالعبادات حتّى ولو بقراءة كايتري وحدها ، وذلك بالقرب من نهر أو غابة ، وهو مطمئن البال ، مستجمع الفكر ».

ويستخدم الهندوس عند طقوسهم في معابدهم برفقة الكاهن ، إضافة إلى الماء في الطهارة ، النّار التي يوقدون بها البخور ومع ذلك الأزهار ، والصلاة التي تؤدّى في المعابد تؤدّى ، على الشكل التالي:« يتلو الكاهن تعاويذه التقليدية ، وبعدها يركع الشخص تحت قدمي الصنم متضرعاً... يتلو الكاهن الأدعية التقليدية... كلّ طبقة لها وضع خاص في الأدعية التي يتلوها الكاهن... في الختام يتلو الكاهن دعاءً مخصوصاً... يصلّي الشخص ثُمّ يُرشُّ الماء ثُمّ يخرج .

3 ــ إحراق الموتى : النفس هي الأساس في المفهوم الهندوسي ، والبدن ليس له اعتبار كبير ضمن نظام التناسخ ، فإنّ النفس عندهم تنتقل في دورة الحياة من بدن إلى آخر طلباً للتزكية والتطهّر ، حتّى إذا ما تـــمّ لها ذلك توقف حلولها في الأبدان واتحدّت بالروح الكلية " النيرفانا " .

لذلك اعتمدوا نظاماً قاسياً مع البدن في الحياة ، وإذا ما مات المرء فيكون في طقوسهم إحراق جثمانه ومن ثُمّ وضع الرماد في أنبوب ، وإلقاء هذا الرماد في نهر الغانج ، النهر المقدّس عندهم .

أمّا الإجراءات للحرق فهي كما حدّدها الدكتور شلبي تتم باستعمال: النّار ــ الحطب ــ الجثة ــ الماء. هذه الأشياء ينقلها أبناء الميّت تحت قدم الصنم . ويغسل الميّت بالماء القراح ثُمّ يُغسل مرة أخرى بالماء المعطر... كلّ الفتوح في الجسم تغلق تماماً. يحرق الجسم بالنّار المحترمة عندهم التي يقررها الكاهن... يلقى عليها الحطب الذي يعترف بأنّه محترم عندهم... التراب المتخلّف (الرماد) من الحريق تتلى عليه التعاويذ والتراتيل الهندوسية ، ثُمّ يتمّ وضعه في أنبوب لرميه بعدها في نهر الغانج.

4ــ اليوغا : الإنسان في الهندوسية من نفس ــ آتمن بلغتهم ــ وجسده أشبه ما يكون بحاجز كثيف يمنع النفس من الانعتاق من توالي دورة الحياة عليها ، ليتحقّق الاتحاد بالروح الكلية " النيرفانا " أو بالإله برهما.

لذلك اعتمد الهندوس كما يقول السحمراني ، مصطلح «كارما» ؛ ويشير هذا المصطلح إلى نظريتهم في الولادة وتناسخ الأرواح بين الأبدان ، ومصير الإنسان ، خاصة النفس المرهونة بأعمال الإنسان نفسه.

فإذا سلك الإنسان سُبُل الخير والعمل الصالح ، وقام بواجباته الدينية انعتق من دورة الحياة والموت واتحدّ بالكلي «برهما ».

وإذا سلك الإنسان طريق الشر والمفاسد وأهمل الواجب ، بقيت روحه متنقلة من جسدٍ إلى آخر وتتكرر عليها دورة الحياة والموت.

لهذه الغاية عمد الهندوس إلى رياضة اليوغا. وكلمة " يوغا " سنسكريتية معناها : النير ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذه الرياضة اليوغا تحقّق خلاص النفس من نير الأبدان .

إنّ براهما وآتمن (النفس) واحد ، لذلك تكون اليوغا من أجل إعادة هذه اللحمة التي انفكّت عند نزول النفس في بدن ، فمطلب تحرير النفس لتتحدّ ببرهما إذن هو غاية اليوغا.

ويضيف في قوله : إنّ العمل لملاشاة البدن وإطفاء نار الشهوة وإخمادها ليست كافية ، إن لـــم يعرف الإنسان الحكمة وينتفي الجهل عنده ، وعندما يتمّ إنجاز هذه الحكمة ، لا تعود هناك معاناة ، إذ لا يعود البوروشا (الروح) مرتبطاً على نحو خاطئ بالبراكريتي (المادة) المتغيّر والمتعرّض للمعاناة .

وبذلك يكون الوصول إلى رضوان الإلـــه الخالق كما يقول أحمد شلبي هو الهدف ووسيلة ذلك ممارسة رياضة اليوغا ، تلك الرياضة التي تقوم على أساس من التذكر والتفكير والصمت .

أما كولر فيقول إن اليوغا هي السبيل للخلاص من الآلام والبلايا تمهيداً لتحقيق النرفانا التي بها يتمّ الاتحاد والذوبان الكامل لآتمن (النفس) بـــبراهما.

وبذلك تنتهي اليوغا بالإنسان ـــ كما يقول السحمراني ـــ إلى خلاص من نير البدن ، ومن نوازع الأنا ليكون محبّاً للنّاس جميعاً ، هذه الدرجة الرفيعة تعطي لصاحبها لقب «مهاتما» ، وهو لقب يطلق على الصلحاء والقديسين عند الهندوس ، والكلمة بالأصل من مقطعين : آتما أو آتمن ، أي الروح و «مها» معناه العظيم وبذلك يصبح مَنْ تحقّق له الخلاص صاحب الروح الأعظم.

5ــ سَرادّة : وهي ــ كما ذكر البستاني في دائرة معارفه ــ لفظة هندية معناها الوضيمة وهي تُطلق على احتفال يجرونه في الهند للموتى ولأرواح الموتى، فإذا أجريت لشخص متوفٍ من مدّة قريبة يكون المقصود منها إيصال روحه إلى السِّماء وتسهيل قبولها بين الأرواح الخالصة المسماة بيرس ، وعندهم أنّ عدم إجراء هذا الاحتفال يُبقي الروح تائهة على وجه الأرض مع الأرواح النجسة ، وأنّ الذي يتأخر في أداء هذه الفروض نحو أقربائه الميتين تلعنه الآلهة والبشر وتبقى أرواح أقربائه محرومة مدّة سنوات معلومة ، من وليمة الأرواح الخالصة.

والبراهمة يجرون في أوّل كلّ شهر قمري سرّادات مشتركة عن أرواح أسلافهم عموماً ويقدّمون تقدمة يومية ، ويقيمون كلّ شهر أو كلّ سنة سرّادات خصوصية لأقربائهم . وقد ورد في كتابهم أنّ الذي يقدّم لأرواح الموتى أرزاً مسلوقاً في الحليب وعسلاً وزبدة مصفاة ، في أحد الأيام القمرية عندما يكون ظلّ الفيل متجهاً نحو الشرق ، يرضيها سنة كاملة والتقديمات الأخرى ترضيها شهرين أو ثلاثة أو أكثر حسب أنواعها وتسر الأرواح مسرّة أبدية إذا قدّم لها لحم وحيد القرن أو سرطان البحر أو ماعزّ صوفه يضرب إلى الحمرة أوعسل أو حبوب أكل منها ناسك ، وبين هذه العوائد الهندية والعوائد اليونانية والرومانية مشابهة كلية، ولا يدعو الهنود إلى الولائم سوى أشخاص طاهرين ، ومن الضرورة حضور برهميّ حاو كلّ الشروط المقتضاة وحضور رجل واحد عارف بالكتب الدينية أفضل من حضور مليون رجل لا يعرفون بها ، وإذا لـــم يكن للمتوفي ابن فالولد الذي يكون قد تبناه يتمّم فروض السرادّة وهذا مما يزيد تبنيه ثبوتاً.

المرأة عند الهندوس :

لـــم تتمتع المرأة في المجتمع الهندوسي بأي مكانة ، بل كانت مسلوبة الحرية والحقوق بكل أنواعها ، وقد ورد في بعض النصوص في شرعهم أنه « لا تليق الحرية المطلقة بالمرأة قط ، بل يجب أن يرعاها أبوها في صغرها وزوجها بعد ذلك وابنها في كبرها » .

كما يجب عليها سواء كانت « صغيرة وشابّة أو مسنّة ألا تعمل عملاً ، ولو داخل دارها بمطلق إرادتها وحريتها، بل يجب أن تكون في صغرها تابعة لأبيها، وفي صباها لزوجها، وإذا مات زوجها فلولدها ، ولا تكون مطلقة الحرية » .

كما فرضت الشريعة الهندوسية نظاماً سيئاً على المرأة جعلها أسيرة زوجها في شتى وجوه حياتها، وعليها أن تطيعه حتى لو كان منحرفاً وغير صالح ، كما صورها المجتمع الهندوسي بأنها فاسدة ومفسدة حيث لا مكان

عندها للقيم والأخلاق ، وبذلك دعا للتعامل معها بحذر ، فقد فطر النساء على إغراء الرجال ، فعلى العقلاء أن يحذروهن ، إنّ في استطاعة النساء استهواء حتّى العلماء من الرجال ، وجعلهم عبيد الهوى والغضب .

والمرأة عند الهندوس لا تتاح لها فرصة التحصيل العلمي خاصة للفلسفة، لأنّها لا تطيق ذلك ويقودها إلى الجنون. وكذلك يحرّمونها دراسة كتب الفيدا أو الويدا المقدسة عندهم. ينقل ديورانت في هذا: «ففي المهابهاراثا إذا درست المرأة كتب الفيدا كانت هذه علامة الفساد في المملكة. ويروي المجسطي عن أيام شاندرا جوبتا: إنّ البراهمة يحولون بين زوجاتهم وبين دراسة الفلسفة ؛ لأنّ النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذّة والألـــم ، والحياة والموت نظرة فلسفية ، أصابهن مسٌّ من جنون ، أو أَبَيْنَ بعد ذلك أن يظلّن على خضوعهن».

والهندوس ـــ كما جاء في منوسمرتي ـــ يشجعون على الزواج المبكر ، ويعتبرون عدم الزواج عاراً ، ومنذ الصغر يهتم الأهل بإتمام زواج أولادهم . والزواج يربط المرأة بزواجها رباطاً أبدياً ، لذلك انتشر عندهم إذا مات الزوج قبل الزوجة أن تحرق الأرملة مع جثمان زوجها لأنّه خير لها أن لا تبقى بعده.

ويدعون للتباعد في الزواج بحيث لا يتزوج الإنسان من قريباته ، إن لجهة الأم أو الأب ، ويضعون شروطاً قاسية تتعلق باختيار الزوجة .

وإذا كان موضوع حرق المرأة الأرملة مع جثمان زوجها قد توقف بشكل شبه نهائي بعد قانون أصدره المستعمرون الإنكليز سنة1830، فإنّ المرأة ظلّت محرومة من ميراث أبويها حتّى سنة1956 ، حيث صدر قانون في الهند يعطيها هذا الحقّ ، إلاّ أنّ المرأة لـــم تنتهِ معاناتها بعد في مجتمع الهند حيث لازالت مشكلة "الدوطة" التي على الأهل تأمينها تقف عائقاً أمام زواجها ، وبعد تطوّر الفحص الجنيني قبل وضع الحمل لمعرفة جنس الجنين ، ساعد على انتشار حركة وأد خطيرة للمولود الأنثى إمّا بالإجهاض أو بالدفن لحظة الولادة. وهذا ما تطلب من البرلمان الهندي أن يصدر في آب (أغسطس) من عام 1994 م ، قانوناً يحظِّر إجراء الفحوص الطبية لتحديد نوع الجنين قبل ولادته.

وتعطي الهندوسية للرّجل حقّ تطليق زوجته ، وهذا الحقّ غير معطى لها ، أمّا الأمور التي تبرّر له هذا الطلاق ، فهي بحسب شرعهم في منّوسَمَرتي محدّدة بالنص التالي: « يحقّ للرّجل أن يطلّق زوجته إذا ما ظهر له فيها عيب أو مرض أو أنّها غير بكر ، أو أنّها أعطيت له بخدعة ».

من شرائع وتقاليد الهندوس :

إنّ تتبع نصوص شرع مانو أو منُّوسَمَرتي تبيِّن أنّ الهندوس حريصون على نظام أخلاقي دقيق يتميَّز بالاحترام والفضائل ، ومعظم ما يطرحونه في هذا الباب غير مخالف لما تأمر به الرسالات السَّماوية.

أول ذلك ما يأمرون به من احترام شديد لكبير السنّ ، وما يطلبونه من الصغير من آداب يتعاطى من خلالها مع من هم أكبر منه ، بأن يبدأ الكبار عندما يلقيهم بالسَّلام وأن يعرفهم نفسه ، ومن لا يعرف ألفاظ السَّلام يستخدم مع الكبير تعبير تَمسْكار ؛ أي أنحني أمامك.

ولم يقتصر هذا التكريم على العمر فقط ، بل يتسع ليشمل الأمر مجموعة كبيرة من الأشخاص ، ففي نصوصهم : « قف وعظِّم خالك وعمّك وحماك والعلماء الذين يقومون بالأعمال الدينية ، وأستاذك ولو كانوا أصغر منك سناً ».

وأعطى التشريع الهندوسي مكانة عظيمة للأبوين لما لهما من فضل في إعداد الأولاد وتربيتهم « ليس بالمستطاع مكافأة الأبوين ، حتّى ولا بمئة سنة ، على ما يقاسيانه من العذاب في نسل الأولاد... على التلميذ أن يقوم على خدمة الأبوين والأستاذ بما يرضيهم ، وبذلك ينال ثواب عباداته كلّها... إنّ طاعة هؤلاء الثلاثة هي خير العبادات ، فعلى التلميذ ألاّ يقوم بعبادة ما رجاء الثواب وزيادة الحسنات إلاّ بإذنهم » .

فالوالدان والأستاذ هم أكثر من يحسن للإنسان ويسهم في تشكيل شخصيته ، لذلك وجب عليه أن يبادلهما الإكرام والإجلال ، وهذا الاحترام يعبِّر عنه بأسلوب المخاطبة وبالهيئة عند التخاطب مع الأستاذ.

والهندوسي عليه أن يسعى إلى النعيم الأخروي ، وبذلك عليه أن يتحمّل الأذى في الدنيا ، وأن لا يردّ الإساءة بمثلها.

وفي الهندوسية جملة وصايا تصبّ كلّها في مجرى إتباع الفضائل ، وقد ركزت النصوص عندهم على عدم أذية الغير ولو أوذي ، وأن لا يحسدهم على ما آتاهم الإله من فضله .

وتُحرّم الهندوسية القمار ، وتطالب الحاكم أن يمنع القمار وكلّ أشكال الرهانات، وأن يعمل على معاقبة من يُمارس ذلك، ويعدون القمار كسباً غير مشروع، وهو من جملة أنواع السرقة.

وتستمر الهندوسية في تحريم ومحاربة النفاق والتدليس، وتحظّر التنجيم والارتزاق من خلاله ، كما أنّها تعاقب من لا يمارس عمله ، خاصة الأطباء ، بصدق وأمانة ، وتطالب الحاكم بأن يلاحق هؤلاء وينـــزل بهم العقاب المناسب لاستئصال الفساد من المجتمع ، كما تحرم الرشوة والمكر والتدليس والمقامرة وسلوك طريق الخبث والنفاق والعيش بالتنجيم والشعوذة والسرقة والغش ، وتحرم إلى جانب ذلك السرقة والغش ، وتعاقب على ارتكاب أي مما ورد من هذه الأمور.

وتحرِّم الهندوسية الخمر ، لأنّه نجس ومصدر للخبث «إنّ الخمر نجسة كالإثـــم ، فعلى المولودين ثانية ألا يشربوها ».

إنّ ما ذكرناه ، وهو يشكل بعض مواقف الشرع الهندوسي في مسألة الخلق والفضيلة والضبط الاجتماعي يُظهر جلياً أنّ الهندوسية تتمتع بنظام أخلاقي متقدّم وموضوعي ومفيد في ضبط المجتمع ، ويلتقي في أغلب أسسه مع رسالات السماء .